مقياس: النظريات الفلسفية الكبرى **الأستاذ: بروال**

المثالية: IDEALISME

أولا: تعريف المثالية

إن كلمة المثالية في أصلها اللغوي العربي، اسم مؤنث منسوب إلى المثال، وتعني الخير والفضيلة والسمو، فيقال مثلا: أمثل بني فلان أي أدناهم و أقربهم إلى الخير، كما نقول رجل مثالي في سلوكه أي رجل نموذجي. وولد مثالي أي يقتدى بِهِ، كما نقول خلق مثالي وصرة مثالية.

أما في اللغة الأوربية فنجد كلمة المثالية idéalisme مشتقة من الكلمة اليونانية idea ومعناها فكرة أو تصور في العقل أو مثال مفارق.. فالمعنى اللغوي للمثالية يدور حول الخير والفضيلة والسمو نحو المثل العليا وكذلك يدل على معنى الفكر. هذا ويطلق اسم المثالية بوجه عام على النزعة التي ترد الوجود إلى الفكر بأوسع معانيه.

أما في الاصطلاح فهي مذهب يقرر أنصاره أن المعارف لها وجود ذاتي، أي توجد في ذواتنا وداخل عقولنا، بمعنى أنهم يجعلون وجود الأشياء الخارجية متوقفا على وجود القوى التي ندركها، فإذا انعدمت هذه القوى استحال وجود العالم الخارجي، بهذا تتوحد المعرفة والوجود، فضلا على أنهم يقولون بأن الأفكار سابقة على المحسوسات التي تطابقها والمعاني الكلية على الجزئيات.

فهي موقف فلسفي نظري يرد كل ظواهر الوجود إلى الفكر أو يجعل من الفكر منطلقا لمعرفة الوجود أو الحقيقة مؤكدا على أسبقية المثال بكل معانيه على الواقع. فالمثالية عرفت بأنها مذهب يجعل الحقيقة النهائية للعالم معبرا عنها بلغة الفكرة.

وبهذا المعنى فهي عكس" المادية "إذ تعطي الأولوية في الوجود للروح على أن يكون وجود المادة ثانوياً، في حين أن المادية تعطي الأولوية في الوجود للمادة، على أن تكون الروح انعكاساً للمادة وظلاً لها. وبذلك تقترب المثالية كثيراً من الفلسفة لأنها تبلور مباحث الفلسفة الثلاثة الرئيسية: الحق والخير والجمال.

ورغم وجود صور وأنواع مختلفة من المثالية، إلا أنها تكاد تلتقي في معنى واحد هو البدء بالأفكار قبل الأشياء، وبهذا المعنى فهي تقابل الواقعية. أو يمكن تعريف المثالية بأنها كل نسق يحصر موضوع المعرفة بفاعل المعرفة. بمعنى آخر، يرد هذا المذهب الوجود كله الى الذهن أو الفكر، وقد يكون ذلك ذهنا فرديا أو مطلقا(المطلق عند هيغل)، أو كثرة من الأذهان(كالمثالية المتعددة عند

باركلي). كما يدل على أي مذهب أو وجهة نظر تصاغ على أساس المثل الأعلى ويؤكد الجوانب الذهنية والروحية للتجربة، وهو يقابل المذهب الواقعي أو المذهب الطبيعي naturalism.

إن المثالية مذهب فلسفي يشمل جانبا كبيرا من المذاهب الميتافيزيقية (ما بعد الطبيعة أو الغيبية) وهي اتجاه فلسفي يبحث عن مسألة الوجود (الأنطولوجيا) في حين أن العقلانية اتجاه مذهبي يبحث في أصل المعرفة، ويرد هذا الأصل إلى العقل فقط وينكر دور الحواس أو المعرفة القلبية أو المعرفة عن طريق الوحي، وعكس العقلانية التجريبية وهذه الأخيرة تعتمد على التجربة الحسية فقط دون اعتماد العقل المجرد .

ثانيا: نشأتها وتطورها ومؤسسيها

ظهرت نواة الفلسفة المثالية في عهد أفلاطون (427–342ق م) ويعد رائد هذه الفلسفة ومؤسسها قديما حيث ظهرت بعض أرائه وأفكاره المثالية في كتابيه المشهورين:" الجمهورية" و" القوانين".

فقد اعتقد أفلاطون بوجود ما يسميه العالم الحقيقي الموجودة فيه الأفكار العامة الحقيقية والتي لها وجودها المستقل لا تتبدل ولا تتغير بينما العالم الواقعي لا يمثل الحقيقة النهائية وهو خيال للعالم الحقيقي الذي توجد فيه الحقائق و الأفكار الثابتة النهائية.

وتفاعلت المثالية بالديانة المسيحية فقد تبنى القائمون على نشر الديانة المسحية الفلسفة المثالية طوال العصور الوسطى وحتى عصر النهضة منذ عام 1690هـ فقد اعتقدوا بوجود الحقيقة النهائية في العالم الروحي المنفصل عن العالم الأرضي الذي نعيش فيه.

وقد عادت هذه الفلسفة للظهور والتطور خاصة مع الفلسفة الألمانية بمفاهيم ومذاهب جديدة .

تميزت الفلسفة الألمانية عن مثيلاتها في القارة الأوروبية منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر، بعد بروز إمانويل كانط (1724 _ 1804م) الذي أصبح "أعظم فلاسفة العصر الحديث" كما يقول عبد الرحمن بدوي، فريدريك هيغل (1770– 1831 م) الذي تلونت بديالكتيكه أوسع الفلسفات السياسية في العصر الحديث في فترة لاحقة، وهي (المادية الديالكتيكية) التي صاغها كارل ماركس(1818 . 1883 م) مؤسس الاشتراكية العلمية.

لقد اتسمت الفلسفة الألمانية وقتئذ بسمات تميزها عن الفكر الفلسفي في عموم أوروبا، فبينما طغت بين الفلاسفة الانجليز النزعة التجريبية الحسية، تميزت الفلسفة الألمانية بنزعتها العقلية والروحية، وبالعودة إلى الأنا كنقطة ابتداء في البحث الفلسفي .

ومنذ ذلك التاريخ اصطبغت التجربة الفلسفية في ألمانيا بلون خاص نحا بها منحى آخر لا يتطابق مع ما عليه تيار الفلسفة خارج ألمانيا، وصارت بعض مقولات الفلاسفة الألمان ذات دور تأسيسي لغير واحد من الأنساق الفلسفية الراهنة في فرنسا وبريطانيا بل وفي الغرب عامة .

كانط: ولد كانط في بروسيا الشرقية (ألمانيا الشرقية) وتلقى تعليمه بالمدرسة الثانوية في المدينة، ثم بجامعاتها التي أصبح محاضراً فيها ثم أستاذاً ثم مديراً لها، وكانت حياته العقلية هي كل حياته، فلقد استمر يُدرِّس الفلسفة 42 سنة، وعاش 80 سنة قضاها كلها في مدينة واحدة لم يبرحها، وكانت حياته منظمة، وكان أول فيلسوف يقضى حياته مدرساً للفلسفة.

ويعد الفيلسوف كانط قمة عصر التنوير بلا منازع، وهو ما تلخصه مقالته التي نشرها سنة 1784م بعنوان (جواب عن سؤال: ما هو التنوير؟) والتي جاء فيها : التنوير هجرة الإنسان عن القصور، والقصور هو عجز الإنسان عن الإفادة من عقله من غير معونة من الآخرين. كما أن القصور سببه الإنسان ذاته، هذا إذا لم يكن سببه نقصاً في العقل وإنما نقصاً في التصميم والجرأة على استخدام العقل من غير معونة من الآخرين. كن جريئاً في استخدام عقلك، هذا هو شعار التنوير..انه يطيب لنا أن يكون الكتاب بديلاً عن عقلي، والكاهن بديلاً عن وعيي، والطبيب مرشداً لما ينبغي تناوله من طعام. وليس ثمة مبرر للتفكير إذا كان في مقدوري شراؤه، فالآخر كفيل بتوفير جهدي...

كتب كانط عدة مؤلفات، من أشهرها: "نقد العقل الخالص أو النظري" (1781 م)، "نقد العقل العملي" (1788م)، "نقد الحكم الجمالي" (1790م)، "الدين في حدود العقل الخالص" (1793م)، "ميتافيزيقيا الأخلاق" (1797م) في جزأين، الأول هو: "المبادئ الميتافيزيقية للحق". والثاني: "المبادئ الميتافيزيقية للفضيلة".

هيغل: ولد هيغل بشتوتغارت في ألمانيا، وكان تلميذاً لشلّنغ مع انه كان يكبره بخمس سنوات. يعد من أعظم الفلاسفة تأثيراً في تاريخ الفلسفة الحديثة، إذ لا يمكن أن نفهم: الوجودية، والماركسية، والبراجماتية، والفلسفة التحليلية، والنزعة النقدية، من دون أن نفهم هيغل وتأثيره فيها جميعاً بالسلب والإيجاب.

كتب عدة مؤلفات اتسم أسلوبه فيها بالتعقيد والإبهام وكثرة استخدام المصطلحات، أولها: "فينومنولوجيا الذهن" (1807م) وهو وصف للظواهر الذهنية وآثارها في حياة الإنسان، (المنطق) في ثلاثة مجلدات (1812 _ 1816م) وهو عرض للمعاني الأساسية الميتافيزيقية والمنطقية، ولذلك صار حجر الزاوية في بناء مذهبه، بينما عالجت كتبه الأخرى أقسام المذهب، "موسوعة العلوم الفلسفية" (1817م)، "دروس في فلسفة الدين"، "تاريخ الفلسفة"، "فلسفة الجمال"، نُشرت الثلاثة الأخيرة بعد وفاته.

ثالثا: صورها

بناء على ما تقدم يتضح لنا أن للمثالية عدة صور أو أنواع مختلفة نشير إليها فيما يلي:

المثالية الموضوعية

يقرر أنصارها أن الحقائق أو المعارف لها وجود موضوعي خارجي ، لكنها ليست حقائق تجريبية ، بل هي معارف مثالية، فخير ممثل لها أفلاطون خاصة في نظريته عن المثل، إذ أن المثال عنده ليس الا حقيقة الشيء ، في صورة معقولة.

فالمثل عند أفلاطون مفارقة متعالية موجودة في العقل، أي أنها موجودة خارج المحسوسات وأن الله صانعها، وأن صلة الموجودات بها، إما المشاركة وإما المحاكاة كما أوضح في محاورة الجمهورية.

المثالية الذاتية

يؤكد أنصارها أن الأفكار هي مجموعة أعمال ذهنية في عقل الفرد، ويمثل هذا النمط من المثالية الفيلسوف اللامادي باركلي الذي ذهب إلى أن الشيء الموجود هو ما يمكن إدراكه، فالوجود هو الإدراك. وفلسفة باركلي لا مادية لأنها تنكر وجود المحسوسات بدليل أننا ندركها فقط . يقول ((كل الأجسام التي تؤلف النظام في عالمنا لا وجود لها خارج الفكر، فوجودها معناه أننا ندركها أو نعرفها وبالتالي فهي عندما لا أدركها في فكري أو في فكر إنسان آخر يجب إذن ألا تكون موجودة))

بيد أن توقف وجود العالم الخارجي على الذات العارفة ليس معناه هذا العالم وهم، إذ أن وجوده –سواء أدركه العقل أم لم يدركه– موجود دوما في العقل الإلهي.

المثالية النقدية

تعتبر المثالية النقدية أن العالم الخارجي يتمثل في مجموعة من الظواهر، التي تحدد بناءها قوانين عقلنا، وهي الصور الأولية للإدراكات الحسية المتمثلة في صورتي الزمان والمكان ومفاهيم العقل (المقولات)catigories.

فالمعرفة عند كانط هي نتيجة ترابط بين عنصرين هما: الحس والعقل، أي أن نظرية كانط تحتوي عل عنصرين هما: عنصر مثالي يتمثل في الصور الأوليةapriori للتجربة وهي سابقة عن التجربة، فهي موجودة في العقل بالفطرة لأنها لا توجد في الواقع بصورتها الكاملة، و تتمثل هذه الصور في الزمان والمكان والمقولات. وعنصر آخر واقعي تجريبي يتمثل في المواد اللامحدودة التي تمدنا بها الأشياء

ذاتها أي العالم الخارجي، وتتشابك الصور القبلية (الأولية) مع العنصر البعدي (التجريبي). فلا يمكن معرفة العالم الواقعي إلا عن طريق عنصرين العنصر المثالي الذي يجعل التجربة الإدراكية ممكنة.

المثالية المطلقة

وهي ليست في صميمها إلا استنتاج النتائج التي تضمنتها فلسفة كانط، فإما أن يحذف الشيء في ذاته وتبقى فقط الذات غير الإنسانية وغير الفردية كما عند فيخته، وإما أن تزول الفواصل بين الشيء في ذاته وبين الذات المتعالية بين العالم والفكر، فيتحد الجميع في(كل) واحد أو (روح) أو (فكرة مطلقة) كما عند هيغل. وترتب على هذا أن المعرفة عند هيغل لم تعد خاصية من خواص الإنسان المشخص بل خاصية إلهية وسمة للعقل الكلي أو روح عالمية ، فهذه هي الذات العارفة لا الإنسان.

ذهبت المثالية المطلقة إلى وجود عقل مطلق أو الهي في الطبيعة، وأن هذا العقل باطن في الطبيعة، وأن الطبيعة في حركتها وصيرورتها وتطورها خاضعة لهذا المبدأ المطلق، الذي تختلط حركته بحركتها وصيرورته بصيرورتها إلى حد تصبح فيه حركته مصدر الحركة في الطبيعة نفسها، وتصبح حركة الظواهر الطبيعية مجرد مظهر لحركة المطلق وتطوره.

هذا ونجد أن المثالية المطلقة مذهب اشتهر في ألمانيا مع هيغل، وفي انجلترا مع برادلي وبوزنكيت وجوبكم ، وفي أمريكا نجد رويس، وفي ايطاليا نجد كروتشه وغيرهم من رواد هذا المذهب الفلسفي.

رابعا: أسس ومعتقدات الفلسفة المثالية:

العقل والروح جوهرا لعالم، أي أن العقل والروح هما أهم ما في الإنسان، ومن خلالهما يدرك الإنسان الأشياء والحقائق ومع ذلك قد يكون الحواس ملغاة تماما أو تأتي من مرتبة ثانية بعد العقل أو تكسب إدراكاتها من خلال التوجيه العقلي.

المعرفة مستقلة عن الخبرة الحسية، ذلك أن الإنسان جوهره العقل لا الحواس، والحواس مشكوك في صحة معارفها، وأن وجود الأشياء لا معنى لها من غير العقل البشري الذي يدركها، إذن فالإدراك البشري أساسه العقل مستقلا عن التجارب الحسية وكلما كانت المعرفة مجردة عن الإدراكات الحسية كلما سمت ورقت وكانت أكثر ثباتا ويقينا ودقة.

الحقيقة مطلقة وثابتة، فالحقائق التي يدركها العقل البشري أزلية غير قابل للتغيير والتبدل، ذلك أن العقل مرتبط بالثبات والإطلاق، بينما الحواس فهي مرتبطة بالتغير والنسبية.

العالم المادي ليس واقعا مطلقا، أي أن الظواهر المادية المحيطة بنا ما هي ظل لما يدركه الإنسان بعقله أو يفكر فيه.

خامسا: تقييم ومناقشة الفلسفة المثالية

إن للفلسفة المثالية تأثير كبير على ثقافة الإنسان سواء كان ذلك في الشرق أو الغرب، حيث اعتقد الإنسان لفترة طويلة من الزمن بوجود نظم من الأفكار الحقيقة النهائية في العالم الآخر، فاليونان القدماء تضمنت حياتهم الكثير من مبادئ هذه الفلسفة، كما أن التأثير اليهودي المسيحي كان له أثر كبير في تغلغل أفكار هذه الفلسفة.

هذا وقد تطورت المثالية الحديثة بتأثير أفكار الفلاسفة الألمان، ومن أشهرهم كانت وهيجل وفختة وشلنج، واتسع انتشار هذه الفلسفة حتى أصبحت المثالية والفلسفة كلمتين مترادفتين، ورغم ظهور الكثير من الفلسفات الجديدة مثل الواقعية والبراغماتية والوجودية، إلا انه لم يمح أثر الفلسفة المثالية نهائيا من مجال التفكير والتنظير، إذ أن الكثير من القصصيين والكتاب يقرون بأهمية هذه الفلسفة، وأن بعض السياسيين يبتغون فكرة الإصلاح الاجتماعي المثالية على أساس المبادئ المثالية، وأن الكثير من الحلول المقترحة للمشاكل التربوية قائمة على أساس هذه الفلسفة .

هذه هي أهم صور المثالية وأفكارها التي تميزت جميعا بالابتعاد عن دنيا الواقع، واستخفت بعالم الشهادة أو الكون، واهتمت في مقابل ذلك بالذات العارفة الأمر الذي استحال معها التفرقة بين إنسان وإنسان، وإنما حصرت اهتمامها في الإنسان مجرد من قيود الزمان والمكان، ومن هنا كانت ثورة الواقعيين والوجوديين والبراغماتيين وغيرها من التيارات الفلسفية المعاصرة عليها.

قائمة المراجع

1-المذاهب الفلسفية الكبرى، دومينيك فولشيد، ترجمة ، ترجمة مروان بطش.

2- الفلسفة المعاصرة في اوربا، تاليف، ا. م. بوشنسكي، ترجمة عزت قرني.

3- تاريخ الفلسفة الحديثة ، وليم كلي رايت، ترجمة محمود سيد احمد ، تقديم ومراجعة امام عبد الفتاح امام.

4- قصة الفلسفة، ول ديورانت ، ترجمة فتح الله محمد المشعشع

العقلانية RATIONALISME

أولا: تعريفها ونشأتها

كثر حديثا الحديث عن مصطلح العقل والعقلاني والعقلانية، فلفظ العقلانية في اللغة العربية اسم مصدر مشتق من الفعل عقل، ويراد به عدّة معان، منها: التثبت في الأمور والإمساك والامتناع والشدّ والحبس والحجر. يقال: عقلت الناقة: إذا منعت من السير، ويقال: عقلَ (بفتح اللام) الرجل إذا كفّ نفسه وشدّها عن المعاصي، وقيل: العاقل: الذي يحبس نفسه ويردّها عن هواها. وبالنظر إلى ما ورد في القرآن الكريم من مادة العقل نجد أنه وردت معظمها بصيغة الفعل، ولم يرد لفظ العقل معرفاً.
أما في اللغة الأجنبية فنجد المصطلح العقلانية RATIONALISME مشتق من الكلمة اللاتينية RATIONALIS ومن معانيها العقل والسبب.

أما اصطلاحا فهو مذهب فلسفي فكري يعتقد أصحابه أن الوصول إلى معرفة طبيعة الكون والوجود يتم عن طريق الاستدلال العقلي أي دون الاستناد إلى الوحي الإلهي أو التجربة البشرية وكذلك يرى إخضاع كل شيء في الوجود للعقل لإثباته أو نفيه أو تحديد خصائصه. ويحاول المذهب إثبات وجود الأفكار في عقل الإنسان قبل أن يستمدها من التجربة العملية الحياتية أي أن الإدراك العقلي المجرد سابق على الإدراك المادي المجسد.
كل نزعة عقلية تقدس وتمجد العقل و تجعل منه الصدر الأول لكل ما يمكن معرفته والعمل به وهي تطلق على انحاء ومجالات شتى في الميتافيزيقا ونظرية المعرفة والأخلاق .فهي معالجة وفهم وتفسير مختلف القضايا التي يطرحها الفكر.
العقلانية نظرية فلسفية تستند إلي الاعتقاد بأن المعرفة بازغة من العقل وليست ناتجة عن الخبرة، وبناء علي ذلك يختلف معني العقلانية عن "التجريبية" التي تتخذ من التجربة نقطة البداية.
فالعقلانية كمفهوم هي نظام قائم على الاستدلال (العقل) في مقابل (تضاد) أنظمة قائمة على المثالية أو الحسيّة. كما أنها تضاد للعفوية القائمة على الدوافع اللاعقلانية كمصدر لكل فعل إنساني، فيمكن تعريف العقلانية أيضا بنقيضها الذي هو اللاعقلانية التي تعني الاعتماد عل مرتكزات لا تمت للعقل بصلة مثل السحر والخرافة والتصوف والإيمان والنزعات العاطفية.
تبعا لهذا السياق الاصطلاحي و المفهومي يمكن القول ان العقلانية مذهب قديم وجديد و في نفس الوقت. ظهر في الفلسفة اليونانية على يد سقراط، وبرز وتطور و بصورة أكبر كاتجاه في الفكر الأوروبي الحديث (النهضة و عصر الأنوار) هذا الاتجاه الذي ظهر في القرن السادس عشر و ما بعده، و الحامل لأولية العقل، منطلقا في عدة معان متكاملة و متفاوتة، مقصيا بذلك من الواقع كل ما ليس عقليا أو ذو طابع عقلي (أي خارج عن دائرة التفسير العقلي) و بشيء من التركيز أيضا حاولنا

إبراز الشروط التي أنتجت الاتجاه و المفهوم.. كالتطور الصناعي، و الاكتشافات العلمية المعرفية و الجغرافية.. التي كان لها دور ضاغط باتجاه عقلنة كل جوانب الحياة استجابة لمطلب الكم و النوع في التراكم الصناعي، معتمدين في ذلك على نذمجة لممثلي هذا الاتجاه على المستوى الفكري و الفلسفي "كديكارت"، و "كانط"..آخذين بعين الاعتبار اختلاف نمط العقلانية داخل هذا الاتجاه.

فالعقلانية ملمح جوهري لحركة التنوير التي بلغت أوجها في أوربا في القرن الثامن عشر، وهي تقف ضد المعتقدات الموروثة من العصور الوسطي في الدين والسياسة والمعرفة بوجه عام كما أنها تنشر فهم وتأويل النص الديني وتحض عي الاعتماد علي العقل في هذا الفهم.

ثانيا: التأسيس وأبرز الشخصيات

في الفلسفة اليونانية، نجد سقراط (399-470 ق م)، الذي يعد رائد هذا المذهب قديما، وهو لم يكتب أو يقوم بنشر أفكاره، وإنما كتب عنها ونشرها تلميذه أفلاطون في كتابه الشهير الجمهورية، الذي كان دائما يدخل في المناقشة والسجال مع الآخرين(السوفسطائيون). وعادة كان يبدأ بطرح سؤال بلاغي، يوحي بأنه قابل للإجابة، وبعد الاطلاع عليها، يستمر في طرح الأسئلة حتى تحل كل نقاط الخلاف أو حتى يقر الآخرين علي عدم القدرة على الاستمرار في الإجابة عن الأسئلة، ليثبت الآخرين عجزهم، فسقراط يعتمد في منهجه العقلي على مبدأين لفهم العالم وحقيقة الأشياء وهما التهكم والتوليد، التهكم (السخرية) حيث يتظاهر بعدم المعرفة(الجهل). أما التوليد حيث كان هدفه في النهاية من أسلوبه المتدرج في طرح الأسئلة الوصول الى المعرفة الكلية، متبعا مهنة والدته(قابلة)، فإذا كانت والدته تولد النساء، فهو يولد الأفكار من العقول. كما اعتقد سقراط بأن قبل أن يفهم البشر العالم، عليهم أن يفهموا أنفسهم أولاً، وأن التفكير العقلاني هو الطريق الوحيد لتحقيق ذلك .

أما في الفكر الإسلامي، فنجد فرقة المعتزلة التي تعد بمثابة بداية لبلورة حركة عقلانية عند العرب المسلمين، تمثلت في عقلنة "المعطيات الدينية" ونقل الدين إلى مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية وذلك لتأثرهم بالفلسفة اليونانية. حيث اعتمدوا على العقل وجعلوه أساس تفكيرهم ودفعهم هذا المنهج الى تأويل النصوص من الكتاب والسنة التي تخالف رأيهم. خصوصا في قولهم بأن الإنسان مختار بشكل مطلق في كل أفعاله، مما يبرر التكليف والمسؤولية، واعتماد العقل في التمييز بن الأشياء والأفعال الحسنة والقبيحة. وقاد إعطاء العقل الأولية في المعرفة والتصرف المعتزلة إلى رفض كل ما ليس مقنعا بالحجة العقلية وفق قدرة الإنسان عل التفكير.

وفي العصر الحديث نجد الفيلسوف الفرنسي، رينيه ديكارت(1596-1650) والذي يعد رائد الفلسفة العقلانية في العصر الحديث، كان في الوقت نفسه رياضياً ممتازاً إذ ابتكر الهندسة التحليلية.

اعتمد المنهج العقلي لإثبات الوجود عامة ووجود الله على وجه أخص وذلك من مقدمة واحدة عُدت من الناحية العقلية غير قابلة للشك وهي: "أنا أفكر فأنا إذن موجود".

يرى بعض الباحثين أن الكوجيتو الديكارتي "أنا أفكر إذن أنا موجود" هو نقطة بداية الوعي الأوروبي العقلاني الحديث . لقد استهدفت فلسفة ديكارت تحقيق ثلاثة أمور:

1 . إيجاد علم يقيني فيه من اليقين بقدر ما في العلوم الرياضية، بدلاً من العلم الموروث من الفلسفة المدرسية.

2 . تطبيق هذا العلم اليقيني تطبيقاً عملياً يمكّن الناس "من أن يصيروا بمثابة سادة ومالكين للطبيعة".

3 . تحديد العلاقة بين هذا العلم وبين الموجود الأعلى أي الله، وذلك بإيجاد ميتافيزيقا تتكفل بحل المشاكل القائمة بين الدين والعلم .

وتتحقق الغاية الأولى بإيجاد منهج علمي دقيق، وهذا ما عرضه ديكارت في كتابه: (مقال في المنهج) و(قواعد لهداية العقل). ويقوم هذا المنهج على أربع قواعد، أهمها هي القاعدة الأولى التي تعبر عن الشك الذي سينعت بالشك الديكارتي و (الكوجيتو الديكارتي)، وهو ما عبر عنه ديكارت في التأمل الأول من تأملاته بقوله: "مضت عدة سنوات منذ أن لاحظت أن كثيراً من الأشياء الباطلة، كنت اعتقد إبان شبابي أنها صحيحة، ولاحظت أن الشك يعتور كل ما أقمته على أساس هذه الأمور الباطلة، وانه لابد أن تأتي لحظة في حياتي اشعر فيها بان كل شيء يجب أن يقلب رأساً على عقب تماماً، وان ابدأ من أساس جديد إذا شئت أن أقرر شيئاً راسخاً وباقياً". ويستمر ديكارت في توكيد هذا الشك فيقول: "إني افترض إذن أن كل الأمور التي أشاهدها هي باطلة، وأقنع نفسي بأنه لم يوجد شيء مما تمثله لي ذاكرتي المليئة بالأكاذيب، وأتصور انه لا يوجد عندي أي حسّ، واعتقد أن الجسم والشكل والامتداد والحركة والمكان ليست إلا تخيلات من صنع عقلي، فماذا عسى أن يعدّ حقيقياً؟ ربما انه لا شيء في العالم يقيني. لكن من يدريني لعل هناك شيئاً مختلفاً عن تلك الأشياء التي حسبتها غير يقينية، شيئاً لا يمكن ابداً الشك فيه؟ ألا يوجد اله أو قوة أخرى تصنع في عقلي هذه الأفكار؟ يجب عليّ أن استنتج وأتيقن أن هذه القضية أنا كائن، أنا موجود هي قضية صحيحة بالضرورة في كل مرة انطلق بها أو أتصورها في عقلي".

إن الحاجة إلى تطور علوم طبيعية عقلانية، كانت تصطدم بشكل حاد، مع السلطة المعرفية للكنيسة. وهذا التناقض بين سلطة العقل وسلطة الكنيسة، في مجال العلوم الطبيعية، هو الذي عبرت عنه تاريخيا فلسفة ديكارت. إن الكوجيطو الديكارتي الشهير: «أنا أفكر إذن أنا موجود»، ليست له من دلالة فلسفية، سوى الإدانة لمبدأ السلطة المعرفية للكنيسة في مجال العلوم الطبيعية. فديكارت ذهب

في عدائه لسلطة الكنيسة، إلى حد اعتبار أن الموجود... وأن الواقع، هو فقط ما أتوصل إليه أنا، كنتيجة، عن طريق التفكير العقلاني، المستقل عن كل سلطة معرفية خارجية.

كما طور في القرن السابع عشر الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا (1632–1677) فلسفة منهجية، منطقية وعقلانية. حيث اعتقد بوجود عقلانية واحدة شاملة للإنسان والطبيعة، ولذا سعى الى تطبيق المنهج الهندسي(كما في كتاب اقليدس العناصر) في قضايا فلسفية مختلفة منها الألوهية والأخلاق. واتخاذه لمنهج الهندسة كان لعدة أسباب.

– أن في ذلك الوقت، الهندسة كانت مثالا للعلم التام واليقيني وغير قابلة للاختلاف.

– اعتقاده أنه بالإمكان الوصول إلى الحقيقة في الفلسفة على غرار ما فعله إقليدس في منهجية الرياضيات من دقة ووضوح.

– الحد من الاختلافات التي تتسم بها الفلسفية بتطبيق المنهج الهندسي باعتماده علي البراهين التي تكون صحيحة أو غير صحيحة ولكن غير قابلة للاختلاف

كما نجد الفيلسوف ألماني ليبنتز(1646 – 1716م) يعد بدوره من رواد هذا الاتجاه، حيث قال بأن كل موجود حي وليس بين الموجودات مِنْ تفاوت في الحياة إلا بالدرجة – درجة تميز الإدراك – والدرجات أربع: مطلق الحي أي ما يسمى جماداً، والنبات فالحيوان فالإنسان.

إن النظرة العقلانية لدى ليبنتز تستند في استدلالاتها على مبدأين:

ـ مبدأ التناقض ويتمثل بكون الادعاء كاذب إذا احتوى على تناقض، وأنه صحيح عكس ذلك.

ـ مبدأ العلة الكافية وهو أن لا يمكن لواقعة أن تحدث، ولا أي إدعاء يكون صحيح إلا إذا وجد سبب كافي لذلك لا شيئا آخر.

الحقائق بالنسبة إلي ليبنتز نوعين، حقائق العقل وحقائق الواقع .

حقائق العقل، هي الحقائق اللازمة والأبدية يحكمها مبدأ التناقض. ومنها يمكن الحصول علي العلوم والتفسيرات العقلية، وجود الأشياء، البشر والله والوعي علي وجودنا .

ولكن مبدأ التناقض وحده لم يكن كافي لحل المشكلات الميتافيزيقية لتبرير وجود الموجودات، لأن مبدأ التناقض لا يثبت شيئا سوى أن هذا الشيء ممكن الوجود.

ثالثا: أفكارها ومبادؤها:

القول بأولوية العقل كمرجع أساسي ورئيسي في تفسير الأشياء و بلوغ المعرفة الصحيحة، سواء كانت هذه المعرفة مادية أو مجردة، فالعقل يمثل مصدر الهام الفلاسفة والعلماء وعموم الناس. فالفكرة الأساسية المشتركة بين العقلانيين في نظرية المعرفة إنكار أن القوانين الموضوعية تستمد من الطبيعة، وأن استنباط شروط المعرفة اليقينية والمبادئ والبديهيات يكون من العقل وليس من الطبيعة.

وبذلك فالعقلانية على خلاف التجريبيين الذين يرون في العقل ذاته حصيلة التجارب والخبرات المحصل عليها من الواقع، حيث يتجه العقلانيون إلى انتقاد الحواس واعتبارها مصدرا للخطأ والوهم.
الوصول إلى المعرفة يتم عن طريق الاستدلال العقلي ودون اللجوء إلى أية مقدمات تجريبية.
العقل صفة جوهرية ثابتة تميز الإنسان، لا الحواس، لأن الحواس موضوعها العالم المادي فقط، ومعرفتها متغيرة لا تثبت على حال، وقيمة الصفات تكمن في ما هو ثابت وليس في المتغير منها.
العقل قوة فطرية طبيعية يولد الإنسان مزودا بها، يحتوي على مبادئ كونية يشترك فييها جميع الناس، دون استثناء ويحتكمون إليه ويثقون بأحكامه، وفي ذلك يقول ديكارت((العقل هو أحسن الأشياء توزيعا بين الناس، إذ يعتقد كل فرد انه أوتي منه الكفاية..... يتساوى بين كل الناس))
العقل يتضمن مبادئ صارمة تمتاز بالبداهة والوضوح في ذاتها وتدرك إدراكا حدسيا مباشرا، تساعده في الوصول الى الحقيقة.وهي مبادئ أسستها الإرادة الربانية الثابتة والمطلقة في كل إنسان.
أحكام العقل وحقيقته تمتاز بالكلية والشمولية وهي صادقة صدقا ضروريا، وسابقة عن كل تجربة، ولا يتطرق إليها الشك، فهي يقينية وخالدة في الزمان والمكان.
ارتباط مشكلة السببية ارتباطاً جوهريًّا بالعقل،لأن العقل في نهاية التحليل يرتد بنيويا إلى مبدأ السببية.
عدم الإيمان بالمعجزات و خوارق العادات، والعقائد الدينية، ينبغي أن تختبر بمعيار عقلي.

مناقشة وتقييم العقلانية:

على الرغم من تأثير العقلانية في نواحي معرفية كثيرة، وما للعقل من دور في بناء وتحقيق المعرفة، وإسهامه في كسر كثير من الأوثان وخلخلة المفاهيم والمقولات الدوغمائية التي كانت سببا في أزمته، إلا أنها كانت محل انتقاد من طرف الكثير من الدارسين، لما لاحظوه عليها من ضعف.
إن تقديس العقل وتعظيمه وجعله السلطة المطلقة في بلوغ المعرفة أمر لا مبرر له، كون أن سلطته محدودة، فهو عاجز عن إدراك بعض الحقائق الميتافيزيقية. كما أن العقل لا يستطيع أن ينشئ بالفطرة المعاني والتصورات، وليس له القدرة على خلع صفة الصدق على ما ينتجه من معرفة، ذلك لأن أحكامه متغيرة في الزمان والمكان. فلو كانت مبادئ المعرفة فطرية موروثة– كما يعتقد العقلانيون– للزم عن ذلك أن يتساوى جميع الناس في العلم بها، إذ ثبت أن مبادئ العقل لا يعرفها إلا قلة من الناس وهم المثقفون فقط، ويجهلونها الأطفال والمعتوهون والهمج وعموم الناس، ولهذا السبب نلاحظ اختلاف الناس في مبادئ أخلاقهم وهذا الاختلاف يقضي بأن مبادئ المعرفة ليست فطرية وغير مطلقة وليست كلية ولا شمولية وليست صادقة صدقا ضروريا، بل هي مبادئ نسبية، تختلف باختلاف الشعوب والحضارات عبر الزمان والمكان.

قائمة المراجع

1- المذاهب الفلسفية الكبرى، دومينيك فولشيد، ترجمة ، ترجمة مروان بطش.

2- تاريخ الفلسفة الحديثة، وليم كلي رايت، ترجمة محمود سيد احمد، تقديم ومراجعة امام عبد الفتاح امام.

3- مهدي فضل الله، فلسفة ديكارت ومنهجه دراسة تحليلية ونقدية

الفلسفة المادية: Materialism

المادية في اللغة العربية اسم منسوب الى المادة، ويقابله ما هو معنوي روحي، وفي اللغة الأجنبية نجد المصطلح **Materialism** مشتق من الكلمة اللاتينية **Materia** والتي تعني المادة ومنه استمد لفظ **matière** باللغة الفرنسية ولفظ **Matter** باللغة الإنجليزية.

أما اصطلاحا فتطلق المادية على تلك النظرة الفلسفية التي تعطي الأولوية في الوجود للمادة، وان جميع موجودات هذا العالم تتكون من المادة، ولا وجود لها خارجها، وان الوعي ما هو إلا نتاج المادة وليس العكس. وبذلك فهي تقابل او عكس المذهب المثالي الذي يؤكد أصحابه أن الأولوية للوعي أو الفكر أو الروح، وان المادة تمثل أمرا ثانويا.

إن أصحاب المذهب المادي يعتقدون أن الوجود مادي في طبيعته، ولا شيء في الوجود غير المادة، وما الحركة والحياة إلا وظيفة من وظائفها.

الفلسفة المادية تنطلق من أن أساس الكون هو المادة، وأن حركة الإنسان وحركة التاريخ والمجتمع تبدأ أولاً من تغييرات مادية عميقة تحدث داخل المادة ذاتها (أدوات الإنتاج، التكنولوجيا، الجسم الحي) ثم تتبعها وتنتج عنها تغيرات في الأفكار والأخلاق والعلاقات الاجتماعية...أما الفلسفة المثالية فهي تنطلق من أن أساس الكون هو "الروح" وأن حركة الإنسان وحركة المجتمع والتاريخ إنما تبدأ أولاً من تغييرات فكرية أو نفسية أو روحية عميقة تحدث في أفكار وعقول ووجدان وأخلاق الناس أو في "الروح المطلق والعقل المطلق"- كما في فلسفة هيجل- ثم تتبعها وتنتج عنها تغيرات في واقع الناس المادي والاجتماعي والثقافي والقانوني والسياسي...

الفلسفة المادية هي نظرة ميتافيزيقية ، ترى أن هناك محتوى أو مادة واحدة في الكون إلا وهي المادة، وان الروح غير موجودة، وان الخوارق وان الظواهر الخارقة للطبيعة والظواهر الغامضة، ما هي إلا أوهام أو ظواهر تعزى الى الظواهر الطبيعية .

إن الفلسفة المادية تنطلق من تحت إلى فوق وتعتقد أن الجسم يتحكم في الروح والشعور والفكر والإرادة، بينما الفلسفة المثالية تنطلق من فوق إلى تحت وتعتقد أن الروح والفكر والشعور والإرادة تتحكم في الجسم.

لهذا المذهب صورتان: المادية الكلاسكية ويمثلها مذهب ديمقريطس وابيقور،فلاسفة الطبيعة الأوائل، والمادية الحديثة: التي يمثلها كل من مذهب لامتري وهولباخ، ومذهب توماس هوبز ، والمادية الجدلية التي يمثلها مذهب كل من كارل ماركس وفردريك انجلز

نشأتها وتطورها

ظهر عند القدماء على صورتين: المذهب المادي العملي، والمذهب النظري الميتافيزيقي

المذهب المادي العملي وهو وجهة نظر في الأخلاق، ويقرر أصحاب هذا المذهب أن الشيء الوحيد الذي يجدر بالإنسان أن يسعى إليه هو الخيرات المادية التي تجود بها الحياة.

أما المذهب المادي النظري والميتافيزيقي، ويظهر لنا قديما في صورة المذهب المعروف بمذهب الذرة، أو الجزء الذي لا يتجزأ (مذهب لوقيبوس، وبعده ديمقريطس، وبعده الابيقوريين) ويتلخص هذا المذهب في أن العالم المحسوس قد ظهر كل ما فيه من اجتماع عدد من الأجزاء المادية التي تعرف بالذرات، وان هذه الذرات – وبالأحرى المادة التي تتألف منها – ذات طبيعة واحدة، أي أنها لا تختلف في كيفياتها بل في أحجامها وأشكالها وأوضاعها وعن هذا الاختلاف يظهر الاختلاف بين الأشياء التي تتألف منها. ولا يشذ العقل عن هذه القاعدة ، فهو مركب من ذرات، ولكنها ذرات مستديرة ملساء ودقيقة، أو كما يصفها لوكريتوس هي اصغر الذرات وأكثرها استدارة وحركة، ويعتبر المذهب القديم تنويا لأنه يفترض وجود نوعين من الذرات يتكون الجسم من احدهما والعقل من النوع الآخر.

كما يظهر لنا هذا المذهب في الفلاسفة الطبيعيين الذين أكدوا على العناصر الأربعة (الماء، الهواء، النار، التراب) لنشأة الكون أو الوجود، فهذا طاليس أكد أن الماء يعد أصل وجود الأشياء جميعا.

أما المادية الحديثة، فكان أول ظهوره في إنجلترا يقول هوبز "أن كل حدث حقيقي يحدث في العالم انما هو نوع من الحركة : بل إن الاحساسات والأفكار ليست سوى حركات داخلية في جسم . ولكن النظرية المادية اخذت صورة أخرى اكثر تحديدا لما ازداد علم العلماء بالصلة بين الظواهر النفسية والظواهر البدنية، وادركوا توقف الأولى عن الثانية ، فقد عرف المفكر الإنجليزي جون تولاند(توفي

سنة 1721) ان الفكر وظيفة من وظائف المخ، والذاكرة خزانة مادية تختزن فيها الأفكار في جوهر المخ، وبعده هوك" الذي اقر ان الفحص الميكروسكوبي اظهر ان في المخ متسعا للأفكار جميعا.

بلغ هذا المذهب ذروته في عصر كونذروته في الفلسفة الفرنسية في القرن 18، وعزا لامتري في كتابه "الالة الإنسانية" سنة 1748 الى المادة القدرة على اكتساب الحركة والحس، ووصف بان العقل هو علة هذه الحركة، وهو شيء مادي لان مركزه في الجسم، وما كان في الجسم، لا بد وان يكون متحيزا، وما كان متحيزا، كان بالضرورة ماديا.

هذه الأفكار أيدتها المشاهدات الطبية وعلم التشريح المقارن، حيث اثبت ان العقل لا يؤثر في الجسم ، الا من حيث انه جزء من المخ ووظيفته. هذه الأفكار عينها ظهرت في كتاب هولباخ(1170) نظام الطبيعة، وهو غاية ما وصلت اليه كتابات هولباخ المادية، وهو ان العقل هو الجسم نفسه، ولكنه جسم منظور اليه من ناحية قواه ووظائفه الخاصة.

المادية الجدلية: وهي تعد ركن أساسي من أركان الفلسفة الماركسية، تعتمد أساس، تعتمد على قوانين الدياليكتيك وبناها كارل ماركس بالاستناد إلى جدلية فلسفة هيجل.، والتي يرى من خلالها ان الروح او الفكرة تنتج عنها شيء جديد، ثم ينشا عن هذا التغيير الروحي والمثالي تغيير مادي في واقع الناس، فجاء "ماركس" ليعكس العملية ويقلبها رأساً على عقب، فجعل المادة هي الأساس وأكد على أن العامل المادي هو العامل الأساسي الذي يحدث فيه التغيير أولاً ثم ينشأ عن هذا التغيير المادي تغيرات روحية وأخلاقية وفكرية.

فالمادية الجدلية هي النظرية التي تقرر بأن المادة هي كل الوجود، وان مظاهر الوجود على اختلافها نتيجة تطور متصل للقوى المادية، وان ما هو عقلي يتطور عما هو مادي ولابد أن يفسر على أساس طبيعي.

أفكارها وأسسها:

1-لا وجود إلا المادة، وان الروح غير موجودة، وما الخوارق والظواهر الخارقة للطبيعة أو الظواهر الغامضة ما هي إلا مجرد أوهام، أو أمور لا تعزى إلا للظواهر الطبيعية.

2-المادة أزلية لم تخلق ولا تفنى

3- كل ما في الوجود من أشياء تكونت بمحض المصادفة من حركات هذه المادة الأزلية.

4-طبيعة كل شيء وخصائصه انما هي ترتيب معين لذرات هذه المادة.

5-كل ما نسميه عقلا أو نفسا أو فكرا أو روحا هو شكل من أشكال المادة.

6-تشكيلات المادة وحركاتها خاضعة لقوانين طبيعية، وبها يمكن تفسير كل الظواهر الطبيعية والحالات النفسية دون الحاجة الى الإيمان بقوة وراء الكون تحفظه وتسيره.

مناقشة وتقييم الفلسفة المادية

لقد افرط أصحاب الاتجاه في تفسير كل شيء الى إرجاعه الى المادة، فالمذهب المادي عاجز عن تفسير ابسط العمليات العقلية ، لأن أي ظاهرة عقلية ترجع في نهاية تحليلها الى جملة من الظواهر المشاهدة، أو المفروض وجودها، لكن من الصعب جدا كيف نتصور كيف يصدر الإحساس عن الحركة، بل أن الماديين أنفسهم، لا يدعون أنهم يدركون من هذا الأمر شيئا. وليس من الحق ما يدعون من الناحية الفيزيقية البحتة التي ترتبط بها الظاهرة العقلية، فان أي حدث فيزيقي محدود يمكن أن يفسر وجوده الضروري بواسطة أمر آخر محسوس أو بواسطة الاستنتاج العقلي.

المادية مذهب الحادي فماذا يقدم الإلحاد للإنسان؟ إنه يقول له إنك جئت من لا شيء، وإن كنت جئت من شيء فقد جئت مصادفة، فليس لوجودك غاية، ولا لك في الحياة مهمة، وإنك صائر إلى لا شيء، فما بعد الموت من حياة. والإلحاد بهذه العقائد السلبية يزيح عن قدمي الإنسان الأرضية التي تقوم عليها حياته كلها.

فالإنسان بطبعه مخلوق ذو غاية وهدف لا يكاد يعمل عملاً لا يعرف الغرض منه والغاية من ورائه، والإلحاد يقول له ولكن الواقع أن حياتك في مجملها لا هدف لها.

قائمة المراجع

1- الفلسفة المعاصرة في اوربا، تاليف، ا. م. بوشنسكي، ترجمة عزت قرني.

2- تاريخ الفلسفة الحديثة، وليم كلي رايت، ترجمة محمود سيد احمد، تقديم ومراجعة إمام عبد الفتاح امام.

3- الموسوعة الفلسفية، مجموعة من العلماء والاكاديميين السوفيات.

الواقعية REALISME

أولا: تعريفها

اشتهرت وشاعت في العصر الحديث كلمات: الواقع، والواقعي، والواقعة، والواقعية، لا ككلمات لغوية لها دلالاتها المفردة، بل كاصطلاحات ومفاهيم مذهبية في الأدب، والفن، والفلسفة، والسياسة.

تأتي كلمة الواقع Real من اللفظ اللاتيني المتأخر realis أي ما له علاقة بالشيء ومن اللفظ اللاتيني res الشيء أو المادة matter والاسم منه realnes.

ومعناها اللغوي يختلف بحسب المجال المستخدم فيه مثل:

- ما يحدث كواقع فهو ليس خياليا أو تصورا فهو واقعي وصادق .
- ما ليس صناعيا فهو أصيل مثل اللؤلؤ الطبيعي.
- ما ليس فيه مظهرية أو تظاهرية مثل الحزن الحقيقي.
- في مجال القانون تطلق على ما هو ثابت مثل الأصول الثابتة كالأراضي و المواشي فهو ملكية حقيقية أو عامة تمييزا عن الملكية الخاصة .
- وفي الرياضيات ما له علاقة بالإعداد الصحيحة.

وأخيرا تأتي النزعة الواقعية لتشير إلى كل ما هو واقعي ، تستخدم في مقابل ما هو تصوري ومثالي.

وتعني الواقعية في الأدب تيار أدبي نشأ في فرنسا منذ منتصف القرن الثامن عشر، كان يدعوا إلى تقديم الواقع ونقله كما هو، في الاتحاد السوفياتي سابقا غدت الواقعية الاشتراكية مذهبا ربطت الأدب والفن بضرورة تصوير الإنسان من خلال عمله في معركته الاجتماعية .

وتعريفها في الأَدَب والفن هي مذهب يمثِّل الأشياء والطبيعة كما هي.

أما في الفلسفة فهي مذهب يجعل للواقع المادي الدور الأول، ويقول بحقيقة الإنسان في ذاته مستَقِلاً عن العَقْل والفكر.

إن الواقعية فلسفة جديدة ، ظهرت كرد فعل للآراء التي قدمتها الفلسفة المثالية، وبالأخص على موقفها المعرفي. فبعد ان كانت المثالية ترى أن العقل هو مصدر المعرفة ، ظهرت الفلسفة الواقعية لتبين أن العقل لا يعد مخزنا للحقائق بذاته، وإنما هي موجودة خارج الذهن وعلى الإنسان أن يحصلها بنفسه .

والوقعيون فيما يرى كولبه KLUPE ((هم الذين يعترفون بوجود عالم خارجي مستقل عن أي عقل يدركه وعن جميع أفكار أو أحوال ذلك العقل وليست الأمور المدركة في التجربة سوى رموز في العقل ولكنها رموز تدل على حقائق خارجية واقعة)).

الواقعية هي القول أن للعالم المادي وجوده الحقيقي المستقل عن عقل الإنسان وأفكاره، وهو قائم خارج الإنسان سواء ادر كناه أم لم ندركه، بل له وجوده حتى لو لم يوجد الإنسان. فالعالم الخارجي كما هو مدرك في عقولنا ليس إلا صورة لهذا العالم كما هو موجود في الواقع، فالمعرفة عندهم هي تطابق ما بالأذهان لما هو في الأعيان.

صورها واتجاهاتها: للمذهب الواقعي عدة صور أو اتجاهات وهي:

الواقعية الكلاسيكية: وهي واقعية أرسطو (322-384ق.م.) فهو يعد أبا مؤسسا للواقعية لأنه حول الفكر اليوناني من التفكير في عالم الخيال والمثل إلى التفكير في العالم الذي نعيش فيه.

كان أرسطو واقعي النظرة، تجريبي النزعة، وكان فيلسوفا ومربيا للأسكندر المكدوني لمدة ثلاث سنوات، ويعتقد الواقعي الكلاسيكي أن العالم الخارجي موجود بالفعل حتى وإن كان بعيدا عن تناول إدراكنا، كما تؤمن الواقعية الكلايسيكية بمدركات الحس وتثق بها ثقة لا حدود لها. ويطلق البعض على هذه الحقبة اسم الواقعية الساذجة لأنها كانت تعكس موقف الإنسان الاعتيادي.

واعتبر مصدر الحقائق هو العالم الحسي (عالم الواقع) و لا تستقى من الإلهام أو الحدس كالمثالية، وإنما تكتشف في عالمنا الذي نعيش فيه- عالم التجربة والخبرات اليومية-.

كما ذهب إلى أن كل ما هو موجود في العالم الطبيعي (ناس وحيوانات وماء ونبات) مكون من مادة وهي تأخذ أشكالاً مختلفة، فالمادة هي أساس كل شيء ويمكن مشاهدتها باتخاذها لشكل معين.

الواقعية الساذجة: وهي تعبر عن الموقف الطبيعي للرجل العادي، وتسمى أحيانا النظرية الطبيعية، وترتبط الفيلسوف الاسكتلندي توماس ريد (1710-1796) من فلاسفة القرن الثامن عشر كمدافع متحمس لهذه النظرية.

وأنصار الواقعية الساذجة يرون أن العالم الخارجي موجود كما يبدو للحواس التي تنقل المعارف الموجودة به دون تحوير أو تحريف. فالإنسان العارف هنا لا دور له على الإطلاق في المعرفة، بل إن مثله في ذلك مثل آلة التصوير التي تلتقط صورة متطابقة مع الأصل دون وعي أو تفكير.

والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها أن الرجل العادي حينما يرى أمامه منضدة وأنها مصنوعة من مادة صلبة ويبني هذا الحكم في ذهنه من صورة هذه منضدة من حيث أن لها لونا معينا وشكلا وصلابة

معينة ، لكن هذه الصورة التي يكونها الشخص عن تلك المنضدة تختلف اختلافا تاما عن حقيقتها ، فالمنضدة ليست كما تصورها الشخص بأنها مادة صلبة ولكنها في حقيقة الأمر هي مكونة من طاقات كهربائية من الكترونات ونيترونات (شحنات كهربائية موجبة وسالبة) واجتماع هذه الشحنات جنبا الى جنب بهذه الكيفية هو الذي أدى إلى خداع الحواس وجعلها تنقل صورة غير حقيقية عن المنضدة أي لا تنطبق عن المنضدة.

كما يستند أنصار الواقعية الساذجة إلى شواهد أخرى، منها أن الأشياء تدرك إدراكا مباشرا دون وساطة عدا الحواس العادية للإنسان، كإدراك البرتقالة مثلا باللمس والذوق، بالإضافة إلى ذلك لا يوجد تمييز بين حقيقة الشيء ومظهره.

إن الواقعية الساذجة لا تطابق الواقع، فليس الواقع في حقيقته على نفس الصورة التي يراه بها الشخص العادي، وضوء الشمس ليس أبيض، وليست الأشياء كما تبدو لنا في حالة ثبات ، فالأشجار تبدو لنا متحركة ونحن ننظر من القطار، ولقد أثبتت الأجهزة العلمية الحديثة كالميكروسكوب والتليسكوب تفصيلات دقيقة عن أشياء لم تكن معروفة مثل الفيروسات والخلية والنجوم وغيرها.

كما أن قوة الحواس ليست متماثلة، فقد توجد بعض العيوب والأمراض في حواس الإنسان يكاد لا يتفطن إليها إلا الأطباء، مثل عمى الألوان وقصر النظر وغيرها. كما أن العالم نفسه في تغير، فهو لا يعرف الثبات، ونحن نتغير في حواسنا وقدراتنا واستعداداتنا، والزمان والمكان عنصران مؤثران في تكوين الموجودات وتغيرها.

الواقعية الساذجة ليست نظرية علمية متماسكة مصورة تصورا نظريا ، وقد أعطت المثالية الذاتية (باركلي وماخ) تفسيرا زائفا للواقعية الساذجة ، إذ أن نظرة العالم، تذهب إلى أن الإنسان لا يتعامل إلا مع إحساساته، و أن وجود العالم ليس أمرا ذا أهمية بالنسبة إليه.

الواقعية النقدية: هي مدرسة من مدارس الفلسفة المثالية الحديثة، والواقعية النقدية توحد عناصر المثالية الذاتية والموضوعية. وقد ظهرت الواقعية النقدية في الولايات المتحدة(سانتيانا) كرد فعل ضد الواقعية الجديدة، وقد عارض الواقعيون النقديون الأطروحة الواقعية الجديدة عن قرب الشيء في الوعي، بنظرية بناء فعل المعرفة الذي يضم ثلاث عناصر: الذات، الموضوع ، والمعطى أو الماهية. وجاء الزعم أن هذه الماهية هي مضمون وعينا أو هي في طريق وعينا . والماهيات في رأي الواقعية

النقدية على عكس الشيء تنتقل أيضا بتقسيم مباشر وتوجد داخلها جميع منتجات وعينا ، وتحاول الواقعية أن تعرض هذه الماهيات كشيء له وجود موضوعي . ان الواقعية النقدية شأنها شأن الواقعية الجديدة ، اذ تعارض النظرية المادية عن الانعكاس .

إن الواقعية النقدية تقر وتسلم بوجود الواقع، وهذا الإقرار قائم على الغريزة والإيمان الحيواني بالواقع (عند سانتيا). والمصدر المعرفي الخاص بهذه الواقعية قائم في تفسيرها للفرق بين ما هو مادي و ما هو مثالي، بين الموضوعي والذاتي. ويطلق اسم الواقعية النقدية أيضا على مدرسة تكونت حوالي نهاية القرن التاسع عشر في ألمانيا مع دريش وهو عالم بيولوجي وفيلسوف ألماني (1867–1941) حيث له تجارب مشهورة على بيضاء توتياء البحر. ومن مؤلفاته: تاريخ الحيوية(1905)، فلسفة العضوية(1909). كما تخصصت هذه المدرسة في تفسير لاهوتي للعلم الطبيعي الحديث ساعية إلى التوفيق بين المعرفة والإيمان للبرهنة على 'فساد' و"حدود" العلم.

الواقعية الجديدة: وهي اتجاه في الفلسفة الأنجلو امريكية ظهر في القرن العشرين ومن أعلامها البارزين، جورج مور، وراسل. وتقوم النظرية الواقعية الجديدة في المعرفة على أساس فكرة محياثة المستقبل، وهي الاعتراف بأن الشيء المدرك يمكن أن يدخل الى الذهن مباشرة، ولكن في الوقت نفسه لا يتوقف على المعرفة فيما يتعلق بوجوده وطبيعته . ويرتبط أحد الأسماء التي تطلقها الواقعية الجديدة على نظرية المعرفة– وهو الواحدية المعرفية – بمفهوم فلسفة ماخ عن العناصر المحايدة للخبرة، والفرق الوظيفي بين المادي والنفسي. وتقول الواقعية الجديدة – فيما يتعلق بمبحث الوجود – أن المفاهيم التي لها وجود مثالي واقعية. وأن الأشياء مستقلة عن العلاقات التي تدخل فيها نظرية العلاقات الخارجية. ومن ناحية المعرفة تنشأ نظرية المعرفة الواقعية الجديدة عن تحويل الحقيقة القائلة بأن مضمون المعرفة مستقل عن عملية الإدراك إلى حقيقة مطلقة. وفي مبحث المعرفة تنشأ نظرية الواقعية الجديدة عن فصل الأشياء الكلية عن الأشياء الفردية الجزئية . فهي تجاه نقدي يقف موقفا عدائيا من الميتافيزيقا وينظر إلى المعرفة باعتبارها واقعة طبيعية شأنها في ذلك شأن مختلف الوقائع التي تخضع للوصف والتحليل.

كذلك أن للواقعية الجديدة اتجاها كونيا يظهر على أساس نظرية مفهومة فهما مستقلا في تطور المذاهب الفلسفية الشاملة– نظرية في التطور الفجائي– وفلسفة هوايتهد في التدرج والكلية.

مبادئ أفكار الفلسفة الواقعية

بصفة عامة: تؤكد الفلسفة الواقعية على عدة مبادئ منها:

أن المعرفة الحاصلة في عقولنا ما هي إلا نسخة طبق الأصل لما هو موجود في الواقع الخارجي.

العالم الخارجي هو حقيقة ما ندركه ووجوده مستقل عن إدراكنا.

أن عالم الواقع مستقر ثابت ويشتمل على جميع الحقائق، ونستطيع عن طريق التجريب العلمي الوصول إليها، واكتشافها.

هذه الحقائق هي القوانين العلمية الطبيعية التي تتحكم في الوجود والإنسان وتسيره.

الوجود مستقل عن الإنسان ومحكوم بقوانين ليس للإنسان إلا سيطرة ضئيلة عليها.

توجد الأشياء في العالم الواقعي مستقلة عن الإدراك فما نراه او نسمعه أو نلمسه أو نتذوقه أو نشمه ليس مجرد انطباعات بل هي الأشياء ذاتها.

ترى أن الواقع يحكمه قوانين طبيعية عامة وشاملة لا تتغير بفعل الزمان أو المكان وعلى الإنسان أن يتكيف معها ويفهمها حتى يكون سير المجتمع حسنا وطبيعيا.

تقييم مناقشة الفلسفة الواقعية

الواقعية اعتمدت على الثنائية، فقسمت العالم إلى مادة وصورة، فركزت على الجانب المادي وأهملت الجانب الروحي في الإنسان، أي أنها هدفت إلى التكيف مع البيئة المادية دون الروحية.

الواقعية مذهب مادي، ظهر وتطور في فترة هيمنت عليها الحياة المادية و نتائج العلم التجريبي، فكان من آثارها التركيز على الموضوع و إهمال بشكل كبير للذات.

الواقعية اتجاه ساد وتم تداوله في مجال نظرية المعرفة، و هو اتجاه جاء كرد فعل على التصورات الميتافيزيقية التي سادت في الساحة الفلسفية ، لذلك كان له تأثير اشد في الفلسفات المادية اللاحقة، كالفلسفة الوضعية والتحليلية وفلسفة التحليل النفسي والماركسية و الوجودية وغيرها.

مرت الواقعية بعدة مراحل تطورية، بدأت بالواقعية الساذجة وهي نظرة الرجل العادي للأشياء الخارجية، والذي يأخذ بمظاهرها دون النفاذ إلى بواطنها، لتنقل من مرحلة السذاجة المفرطة إلى مرحلة الواقعية الجديدة، ثم مرحلة الواقعية النقدية التي استفادت من تطور العلوم خاصة العلوم التجريبية، وتجاوزت بذلك مراحل دنيا إلى مراحل عليا، ولكن من سنة الحياة التبديل والتحول والتطور، أبت إلا أن تحقق مسيرتها فتطورت في صور شتى متجاوزة بذلك مرحلة الواقعية النقدية.

فالواقعية بجميع مراحلها وأشكالها ضرورية لفهم تطور رؤى الإنسان إلى الوجود ومحاولة إدراك الكون في نظرية معرفية محددة لها معاييرها مقاييسها الخاصة.

قائمة المراجع

1- دراسات في الواقعية ... جورج لوكاش ترجمة د.نايف بلوز
2- المصادر التاريخية للواقعية ... بوريس تشكوف ترجمة محمد عيتاني وأكرم الرافعي
3-الفلسفة المعاصرة في اوربا، تاليف، ا. م. بوشنسكي، ترجمة عزت قرني.
4- تاريخ الفلسفة الحديثة، وليم كلي رايت، ترجمة محمود سيد احمد ، تقديم ومراجعة امام عبد الفتاح امام.
5- الموسوعة الفلسفية، مجموعة من العلماء والاكاديميين السوفيات.

الفلسفة الوجودية existentialisme

أولا: تعريفها وصورها

تعد الفلسفة الوجودية من اكثر المذاهب الفلسفية سيادة في الفكر المعاصر، وهي تطلق على اتجاهات فلسفية متعددة، تتفق على أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يسبق وجودُه ماهيَّته،- أي أن يوجد وجودا ماديا أولا ثم تتكون لاحقا أفكاره ومشاعره- ، وان الإنسان لا يمكن فهمه إلا في المواقف التي يختارها لنفسه . وعلى أن هذا الوجود هو الوجود اليقيني الأول للفلسفة فتنطلق منه معرضة عن القول بثنائية الذات والموضوع أو القول بمبد أو فكرة يفهم ويفسر الوجود والواقع من خلاله.

وحينما قالت ان نقطة البداية هي الذات التي تعي نفسها في العالم في نطاق وجودها الكامل كفاعلة وكمركز في الشعور والوجدان ، وهذا في مدى المدرك مباشرة وعلى نحو عيني في فعل الوجود.

وتتدرج في الوجودية اتجاهات يقول بعضها بوجودية مسيحية مؤمنة يمثلها كل من الدانماركي سورين كيركغارد (1813 . 1855م)، والفرنسي غبرييل مارسيل(1889 . 1973م)، والأمريكي كارل ياسبرز(1883 . 1969م)، و الروسي برادييف ووجودية ملحدة يمثلها كل من الالماني مارتين هيدغر(1889 . 1976م)، و الفرنسي جان بول سارتر(1905 . 1980م)، سيمون دي فوار البار كامو وغيرهم وجودية فردانية نجدها عند كيركغارد وسارتر، ووجودية منطبعة بالماركسية كما عند هنري لوفيفر.

كان للوجودية تأثير واسع على الثقافة والفنون، أما حضورها الأشد فعالية فنجده في الإنتاج الأدبي كالرواية والشعر والسيرة الذاتية خاصة في الأدب المسرحي. مثلما نلاحظ في روايات ومسرحيات سارتر، وألبير كامو، وسيمون دي بوفوار، وجان جينيه وغيرهم، وهذا ما حمل البعض الى القول بسيطرة الأدب الوجودي في فترة من الزمن على حلبة الفكر في أوربا . وهذا ما ادى هذا الأدب الى تضخيم بعض الموضوعات كالالتزام والقلق والاغتراب والحرية المهددة . هذه المفاهيم ظهرت في الفترة المعاصرة ولها مبرراتها أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية .

عرفت الفلسفة الوجودية الى جانب تأثيرها على الفكر الفلسفي تأثيرا مباشرا وواسعا على مظاهر الحياة الاجتماعية، وخاصة لدى فئة الشباب.

ثانيا: أسباب ظهورها و نشأتها

نقد الفكر الفلسفي المجرد: إن الفلسفة الوجودية عارضت اشد الاعتراض الفلسفات السابقة ذات الاهتمام الميتافيزيقي والأنطولوجي، حيث رفضت الفلسفة المثالية وخاصة فيما يتعلق بفلسفة هيغل ذات الطابع التصوري المحض .

لقد رفضت الفلسفة الوجودية الطابع التصوري المحض للمنطق الهيغلي الشامل. وما تضمنه من ضرورية واعتباره ان الوجود ليس الا مظهرا من مظاهر الروح، وبدلا من ذلك اتخذ الوجوديين من الإنسان حريته وواقعه محورا لفلسفاتهم.

كما تأثرت في أفكارها بكثير من الفلسفات السابقة من حيث المنهج الموضوع لكنها حاولت أن تتميز عنها، فكانت الكتابات والمؤلفات الوجودية مليئة بالردود الفلسفية كما فعل الفيلسوف الدانماركي سورين كيرغارد في نقده لهيغل من خلال كتابيه الشذرات الفلسفية والحاشية العلمية غير الختامية.

أسباب تاريخية واجتماعية: يرى مؤرخو الفلسفة أن للوجودية جذورا اجتماعية تمتد الى الآثار الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي نجمت عن الحربين العالميتين الأولى والثانية.

ظهرت في أوروبا عقب الحرب العالمية الأولى، ابتداءً بألمانيا، ثم فرنسا، ثم انتشرت في بقية الأقطار الأوربية، وبعدها في العالم بوجه عام، ويمكن القول: إنها انتشرت في النصف الأول من القرن العشرين، وبدأ خفوتها في نهايات السبعينيات وبدايات الثمانينيات من القرن العشرين.

و ترجع بذور الوجودية إلى الكاتب الدانماركي سورين كيركجارد، وتعمق فيها الفيلسوفان الألمانيان مارتن هيدجر و كارل ياسبرز، ومن ثم الفرنسيون: جان بول سارتر، سيمون دي بوفوار، غابريل مارسيل، البيركامو، وغيرهم.

لقد رسخت معاصرة الوجوديين لأحداث وتابعات الحرب شعورهم بالقلق والخوف على الإنسان من حيث حريته ومصيره

ولقد بصمت تلك الأحداث المأسوية الكتابات الوجودية فعبرت عن حالة الانهيار الروحي وما رافقها من حالة مظاهر القلق والحيرة والضياع التي كان يعيشها الإنسان ما بعد الحرب .

ومن هنا ذهب البعض الى ان الفلسفة **الوجودية** ليست إلا أيديولوجية مرحلة تاريخية ظهرت في وقت لتتلاءم مع مجتمع قوضت الحرب قاعدته المادية وأساسه الأخلاقي فقدمت نفسها كفلسفة لمجتمع مفكك متداع .

ثالثا: أفكار ومبادئ الفلسفة الوجودية

الإيمان المطلق بالوجود الإنساني ويتخذونه منطلقاً لكل فكرة، فهي اتجاه فلسفي يؤكد على إبراز قيمة الوجود الفردي للإنسان، ويبالغ في التأكيد على تفرده وأنه صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار ولا يحتاج إلى مُوجِّه.

الوجود يسبق الماهية، فالوجوديون يؤمنون إيمانًا مطلقًا بالوجود الإنساني، ويتخذونه منطلقًا لكل فكرة، ويعتقدون بأن الإنسان أقدم شيء في الوجود، وما قبله كان عدمًا، وأن وجود الإنسان سابقٌ لماهيته، كما يعملون لإعادة الاعتبار الكلي للإنسان، ومراعاة تفكيره الشخصي، وحريته، وغرائزه، ومشاعره.

القول بحرية الانسان المطلقة، الحريّة لديهم هي الوجود الإنسانيّ، ولا إنسانية من دونها، والحرية لدى الوجوديين تعمل ضمن المعايير الفرديّة لا ضمن المعايير الأخلاقية والسياسية والدينية السائدة.

يتخذ الفرد قراره وموقفه، وهذا الموقف ذو قيمة مستقبلية لأنه اتجاه في عملية تجديد المستقبل حين تتلاقى القناعات والمواقف في نقطة واحدة.

ترفض الوجودية كلّ الأشكال الجاهزة والموروثة والسائدة لأنها قيود تحد الحرية الفردية، ولذا فهي ترفض الدين. فهي لم تنسجم مع الماركسية انسجاماً كاملاً- وإن كانت تلتقي معها في جوانب الواقعية- حيث أخضعَتها كغيرها للنقد واحتفظت بحق الفرد في المخالفة والانتقاء وحرصت على ألاّ تذوب حريته في إطار الجماعة.

عدم الإيمان بوجود قيم ثابتة توجه وتضبط سلوك الناس، وإنما كل إنسان يفعل ما يريد، وليس لأحد أن يفرض قيماً أو أخلاقاً معينة على الآخرين.

رابعا: تقييم مناقشة الفلسفة الوجودية

احتلت الفلسفة الوجودية بشكل عام مركز السيادة المطلقة في الفترة المعاصرة ضمن الفكر الفلسفي وهي فلسفة ليست بحركة جديدة، بل جذورها ضاربة في القِدَم؛ فعندما تحررت أوروبا من سلطة الكنيسة أصبح المفكر لا يخاف من نشر أفكاره؛ فاستغل البعضُ أجواء الحرية لنسف كل الحدود الدينية والتقاليد السارية في المجتمع.

إن الوجودية من الفلسفات الهدامة، حيث أدى فكرهم إلى شيوع الفوضى الخلقية والإباحية الجنسية والتحلل والفساد الأخلاقي والاجتماعي نتيجة هذه الأفكار التي تعطي أهمية بالغة لحرية الفرد.

ورغم كل ما أعطوه للإنسان من تقوية الروح الفردية الحالمة فإن فكرهم يتسم بالانطوائية الاجتماعية والانهزامية في مواجهة المشكلات المتنوعة، فالوجودي الحق عندهم هو الذي لا يقبل توجيهاً من الخارج إنما يسيِّر نفسه بنفسه ويلبي نداء شهواته وغرائزه دون قيود ولا حدود.

فالوجودية أداة للتفسخ الاجتماعي لأنها تحول دون أن يصدر أي من الناس حكماً على تصرفات الآخرين، بحيث يكون كل فرد عالماً قائماً بذاته في مجتمع يحتاج إلى التعاون في الإنتاج وحل المشكلات الراهنة، والانضواء الجماعي والمسؤولية المشتركة المتبادلة.

كما أن الوجودية بين المتناقضات بين الوجود و العدم، القلق و التفاؤل، الموت و الحياة فهي فلسفة لا عقلية ، و استطاعت أن تعبر عن معانات الإنسان المعاصر ، و تقدم له منهجا جديدا في الحياة ، يعتمد على الذات و تقبل الواقع ، غير أنها تجاهلت الحتميات و أثرها على الإنسان، فالحرية نسبية غير مطلقة ، فلا يمكن أن نحقق كل ما نريد.

قائمة المراجع

1- المذاهب الفلسفية الكبرى، دومينيك فولشيد، ترجمة ، ترجمة مروان بطش.

2-الوجودية، جون ماكوري، ترجمة امام عبد الفتاح امام.

3- الفلسفة المعاصرة في اوربا، تاليف، ا. م. بوشنسكي، ترجمة عزت قرني.

البراغماتية (الذرائعية) pragmatism

أولا: في معنى البراغماتية و أصولها

اشتقت البراغماتية من اللفظ اليوناني pragma التي تعني فعل أو نشاط أو عمل. كما تعرف أيضا بالذرائعية، إذ أن أفكارنا تعد ذريعة ووسيلة وأداة لتحيق عمل نافع في الحياة.

أما فلسفيا فهي تيار ذاتي في الفلسفة الأمريكية ، يرى ان المنفعة العملية مصدر ومعيار صحتها .

ولهذا يصف الكثيرون هذه الفلسفة بفلسفة المصلحة التي لا تؤمن بالمبادئ والأخلاق لكنها تؤمن بالفائدة والمنفعة حسب منتقديها.

تعارض البراغماتية الرأي القائل بأن المبادئ الإنسانية والفكر وحدهما يمثلان الحقيقة بدقة، معارضة مدرستي الشكلية والعقلانية من مدارس الفلسفة أو لنقل بمعنى أصح الاتجاه التقليدي. ذلك أن الفلسفة العلمية إنما هي بدورها فلسفة تجريبية أيضاً ولقد كان وليم جيمس عالما تجريبياً قبل أن يكون فيلسوفاً تجريبياً ومن ثم فإن هذا الفيلسوف يحدد لنا، في كتابه البراغماتية الموقف البراغماتي فيقول عنه الموقف الذي يصرف النظر عن الأشياء الأولى والمبادئ، والمقولات، والضرورات المفترضة ويتجه إلى الأشياء الأخيرة، والآثار والنتائج والوقائع.

قد نشطت هذه الحركة أو التيار أو المنهج في الفكر الفلسفي الأمريكي، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وخلال الربع الأول من القرن العشرين، وأصبحت السمة المميزة للحياة والثقافة الأمريكية،

حيث أصبح كل شيء يقاس بالعمل أو الأثر المنتج، ولا مجال للحديث عن أهمية الفكر المجرد في معزل عن دنيا الواقع. ولذلك ذهب بعض النقاد الى اعتبارها حركة نقدية موجهة ضد الفلسفات الموروثة – المثالية– من اجل إرساء دعائم فكر أكثر إيجابية، وبذلك أصبحت الفلسفة البراغماتية هي الإسهام الأمريكي في الفلسفة العالمية.

وصف جون ديوي البراجماتية بأنها" فلسفة معاكسة للفلسفة القديمة التي تبدأ بالتصورات، وبقدر صدق هذه التصورات تكون النتائج، فهي تدعُ الواقع يفرض على البشر معنى الحقيقة، وليس هناك حق أو حقيقة ابتدائية تفرض نفسها على الواقع."

وقد هيمنت الفلسفة البراغماتية على الحياة العقلية مدة طويلة في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي فلسفة تتخذ من العمل مقياساً مطلقاً، وقد وردت هذه الفكرة للمرة الأولى في مقال للفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرز بيرس في سنة 1878م بعنوان: "كيف نوضح أفكارنا". ولم تتضح أهمية هذا المقال إلاّ بعد أن كشف عنه وليم جيمس في محاضراته عن البراغماتية سنة 1898م "المفاهيم الفلسفية والنتائج العملية". إن ظهور هذه الفلسفة، كان مع على يد الفيلسوف الأمريكي بيرس، ثم عرفت بشكل واسع على يد الفيلسوفين الأمريكيين، وليم جيمس وجون ديوي حيث ربطت هذه الفلسفة بين الفكر والعمل، ونادت بالقول:" إن قيمة كل فكرة تكمن في فائدتها العملية".

فاهمية بيرس في فكرنا المعاصر تكمن أولا في كونه واضع أسس المنهج البراغماتي الذي انطلقت منه باقي البراغماتيات، وثانيا كون منهجه اصبح يشكل الآن الجوهر للفكر الأمريكي، وثالثا، كونه باحثا مبتكرا في كثير من المجالات ، فهو من الأوائل الذين بحثوا في فلسفة العلم، ومن أوائل المفكرين الذين بحثوا فيما يسمى بعلم السيمياء او السيميوطيقا. هذا بالإضافة الى اشتغاله بالمنطق والفلسفة وعلم الفلك والرياضيات وغيرها.

واقترنت البراغماتية في الأذهان باسم وليم جيمس (1843 _ 1910م) وهو أكبر دعاتها في أمريكا، وأحد مؤسسي علم النفس الحديث، ويرى جيمس أن معيار صدق القضية هو نتائجها العملية، وليس مطابقتها للواقع، ومعيار الحقيقة هو نجاح الفكرة عملياً، فيقول:"الفكرة صادقة إذا كانت تعمل"، ويقول: "الفكرة صادقة إذا كانت لها نتائج عملية تقودنا إلى الموضوع المقصود بها إدراكه". ويتابع "القضية صادقة إذا كانت تعطينا أكبر كم من الرضا، بما في ذلك إرضاء الذوق... وان أهم خاصية للحقيقة هي التحقق العملي".

ويذهب الفيلسوف الأمريكي (ديوي) إلى أن تحديد مفهوم ما أي فكرة إنما هو بأنها أداة فعل. و يقول: "النظرية أداة أو آلة للتأثير في التجربة وتبديلها، والمعرفة النظرية وسيلة للسيطرة على المواقف الشاذة، أو وسيلة لزيادة قيمة التجارب السابقة من حيث دلالاتها المباشرة"

وينجم عن ربط الحقيقة وصدق الفكرة بالنتائج العملية والرضا والمصلحة نسبية الحقيقة وتعددها، تبعاً لتنوع مصالح الأفراد. وهذا يعني أن البراغماتية تتعارض مع المذهب العقلي الذي يعتقد أن الحقيقة وصدق الفكرة مرهون بكشفها عن الواقع ومطابقتها للحقائق الخارجية. ويبدو أن البراغماتية تجسد أحدى تجليات الوعي حيث أضحت الحقيقة في هذا الوعي تدور مدار المصلحة .

اكدت البراغماتية على النواحي العملية في المعرفة، واتخذت الأفكار والقضايا معناها من خلال التطبيق العملي والاستخدام الأمثل لها يقول وليم جيمس في كتابه البراغماتية " ان الطريقة البراغماتية هي في الأصل وبصفة أولية طريقة لحسم المنازعات الميتافيزيقية التي لولاها وبدونها ما كان يمكن ان تنتهي" يضيف قائلا: " ان الطريقة البراغماتية في مثل هذه الحالات هي محاولة تفسير كل فكرة بتتبع واقتفاء اثار نتائجها العملية كلا على حدى"

تعتبر البرغماتية ركيزة أساسية تلتف حولها دراسات فرعية كثيرة، يشترك مؤسسوها(بيرس ووليم جيمس وجون ديوي) في أصول مشتركة منها تلك اللفتة في معيار الصدق المنطقي لعبارة من العبارات وجعلت من هذا المعيار هو ما يهديني الى سواء السبيل في حياة عامة او زراعة او صناعة او تجارة. اسلم لك من فوري بأنه قول حق بغض النظر عما هو كان او كائن بالفعل ، فليس الصدق شيئا قائما هناك ثم يجئ الناس ليشخصوا إليه بإبصارهم وليقولوا ما يقولون ، بل الصدق هو طريقة سير نمشي في الحياة على هداها.

يحدد بيرس وظيفتين لها هما:

– تمنحنا إمكانية التخلص السريع والفعال من جميع الأفكار التي تكون غير واضحة.

– يجب على البراغماتية أن تزودنا بدعم وتأييد الأفكار الواضحة وذلك من خلال إصدار حكم لتمييزها عن القضايا الميتافيزيقية.

ثانيا: السمات المشتركة لها

- الإعراض عن التجريد والحلول اللفظية للمشكلات الفلسفية والأنساق الفلسفية المغلقة.
- الاتجاه الى ما هو متعين مشخص وواقع وحقيقي والى الفعل الذي يتناول تلك النتائج لا بغرض الكشف عن حقائق معينة او تحقيق نتائج يقينية.
- الابتعاد عن الدغمائية، فالفيلسوف البراغماتي فيلسوف حر متفتح الذهن أمام إمكانات الطبيعة نائيا بنفسه عن كل اصطناع او تظاهر لبلوغ الغاية والنهاية في الصدق.

بناءا على ما سبق يتجلى لنا تحديد البراغماتية على ضوء وليم جيمس في النقاط التالية:

- مجرد منهج فلسفي يهدف الى توضيح وتحديد المشكلات ومحاولة تفسير المعاني وإيضاحها عن طريق تتبع نتائجها الفعلية.
- من حيث هي طريقة وأسلوب توضيح والبحث لإزالة الشوائب عن المعاني الأفكار يقول وليم جيمس " لكي نتوصل الى وضوح كامل ودقيق لأفكارنا عن شيء ما او موضوع ما فإننا لا نحتاج الا ان ندخل في اعتبارنا جميع الآثار الحسية المترتبة عمليا على هذه الفكرة او المتضمنة في هذا المفهوم و كذا جميع ردود الفعل التي يجب أن تتهيأ لها" .
- هي نظرية في الصدق، خاصة فيما يتعلق بالمعنى والاعتقاد، يرتبط معنى الصدق بالنجاح العملي ، حيث بقول ليم جيمس " كل ما يؤدي إلى النجاح فهو حقيقي".

تقوم البراغماتية على أن الأثر العملي هو المُحدِّد الأساسي في صدق المعرفة وصحة الاعتقاد بالحياة الاجتماعية للناس .فالقيمة والحقيقة لا تتحددان إلا في علاقتهما بالممارسة العملية.

هذا ويعتبر موضوع الصدق من اعقد موضوعات البراغماتية، فلا يخلو كتاب من كتبها لا يتناول هذه المسألة، بالإضافة الى إشادتها لنظريتي التطابق والاتساق. فالصدق ما له اثر، فهي موقف فلسفي جديد يستهدف طرح التقاليد الفلسفية القديمة .

عندما ننظر في كتابات وليم جيمس نجده قد فكر في استخدام عدة طرق لكي يعبر عن مفهوم الصدق، حتى اهتدى الى النموذج الذي اعتبره أصلا لعملية الصدق، وهو نموذج المبدأ الموجه منطقيا أو تصوريا نحو الفكرة حتى تتمكن من التحقيق كاملا وببساطة مثل التأثيرات الحسية التي تجعل الإنسان يتوقع ما يحدث بالفعل. ولقد اقتنع وليم جيمس بأن الموضوع الصادق هو تلك الفكرة التي تعطينا أقصى حد للاقتناع والشعور بالرضا ، وقد شمل الموضوع الصادق بوضوح كل من حدوث التنبؤ بالتأثيرات الحسية والشعور بالرضا.

ثالثا: مناقشة وتقييم الفلسفة البرغماتية

قامت الفلسفة البراغماتية أولا، برفض الفلسفات التقليدية المجرَّدة التي ليست في خدمة الحياة، وثانيا، بتأسيس منهجٍ جديد أو فلسفة عملية ذات منهجٍ عصريٍّ يُساير حاجات الناس المتجددة باستمرار،

وتقلبات رغباتهم اليومية، وهو منهجٌ يدعو إلى الانصراف من الفكر المجرد إلى الفكر العملي، وذلك استجابةً لضرورات الحياة واستشرافا للمستقبل.

إن الفلسفة البراغماتية فلسفة مادية، إلا إنها تختلف عن الواقعية والمادية كونها تعترف بالحقيقة الميتافيزيقية، فالفكرة ليست مطابقتها للواقع بقدر اثر هذه الفكرة في دنيا الواقع، والقانون العلمي لا يعد حقيقة إلا بآثاره في الواقع.

غير أن ربط صحة الأفكار بالمنفعة يجعل من المعرفة وسيلة وليس غاية.

كما أن مقياس المنفعة مقياس ذاتي وليس موضوعي، فهو يختلف من شخص لآخر ، فما ينفعنا على سبيل المثال قد لا ينفع غيرنا، فلا تكون الحقيقة واحدة عند جميع الناس، بمعنى أن الفكرة قد تصح عند البعض و لا تصح عند البعض الآخر لذلك يجب أن نأخذ بالمبادئ أيضا.

تبدو البراغماتية في الظاهر فلسفة ايجابية لكن الواقع العملي للإنسان يثبت طغيان المنفعة الخاصة عن المنفعة العامة، كما أدت فلسفتها إلى تهديد امن كثير من الدول الضعيفة بسبب صراع المصالح بين الدول الكبرى و بالتالي نشوء الحروب وبالتالي نحتاج للعودة نحو الذات الإنسانية و قيمة الإنسان كجوهر للوجود كما راعته في ذلك الوجودية.

قائمة المراجع

1- الفلسفة البراغماتية، أصولها ومبادئها دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، علي عبد الهادي المرهج.

2- الموسوعة الفلسفية، مجموعة من العلماء والأكاديميين السوفيات.

3- تاريخ الفلسفة الحديثة ، وليم كلي رايت، ترجمة محمود سيد احمد ، تقديم ومراجعة امام عبد الفتاح امام.

4- قصة الفلسفة، ول ديورانت، ترجمة عبد الله محمد المشعشع.

5- الفلسفة المعاصرة في اوربا، تاليف، ا. م. بوشنسكي، ترجمة عزت قرني.